

خطاب التأويل عند عبد الفتاح كيليطو في كتابه الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي

د/ شريفة مختيش

قسم اللغة والأدب العربي

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة/ الجزائر

تاريخ النشر: 2023/12/30	تاريخ القبول: 2023/11/22	تاريخ الإرسال: 2023/11/04
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

يعد الناقد المغربي عبد الفتاح كيليطو واحدا من أعمدة النقد المغاربي المعاصر تنظيرا وتطبيقا، توزعت أعماله النقدية الكثيرة على مناهج متنوعة (البنوية، السيميائية ..)، وصولا إلى نظرية التلقي والتأويل وهي المعنية ببحثنا هذا لوصف ما جاء به الناقد من فهمه للتأويل وتطبيقه له من خلال كتابه (الحكاية والتأويل)، الذي أثر من خلاله العودة إلى التراث السردى العربي (الحكاية) وأعاد قراءته بمنظور حدائي وفق (نظرية التلقي والتأويل).

هذا الكتاب الضخم الذي استغرق صفحة (244) صفحة، موزعا على فصول ومباحث مهمة وجديرة بدراستها والوقوف معها مطولا في هذه المداخلة، وتعود أهمية هذا المؤلف لسبب واحد ووحيد وهو عودة الناقد إلى تراث العربي وتحديد ذاكرة السرد القديم ليعيد قراءته وإحياءه بآليات نقدية معاصرة، إذن هدفنا من الدراسة هو الوقوف على ما استجده الناقد من تنقيبه عن السردية العربية القديمة من زاوية تأويلية، ومعرفة كيفية قراءته للتراث وطرق تأويله له.

وتكمن أهمية هذا المشروع النقدي الضخم (الحكاية والتأويل 1984م) في أنه يجمع بين الأصالة والمعاصرة، بين القديم والحديث، من خلال العودة بنا إلى الذكرى العربية التراثية لاكتشافها وإعادة بعثها في أبهى حلة من الذوق النقدي الرفيع للناقد المرموق الفذ عبد الفتاح كيليطو.

وهنا تفرض بعض الإشكالات نفسها حول:

ماهي دوافع المبدع وأهدافه في العودة للقديم من منطلق نقدي معاصر؟.

إذا كان التأويل هو بحث عن دلالات جديدة، فما الجديد من الدلالات المتحصل عليها في الذاكرة السردية القديمة؟.

ماهي القضايا والمسائل الأدبية التي لفتت انتباهه في السرد القديم، وكيف حاورها بمنظور حدائي؟.

كيف تمكن من تكييف النص العربي القديم مع تيار الحداثة الجارف؟، وبالتالي هل حافظ على معاني النصوص كما هي من ذي قبل؟.

أما المنهج المعتمد فهو الوصف والتحليل الأنسب في هاته القراءة الوصفية لمؤلف نقدي من باب (نقد النقد) أو قراءة للقراءة.

الكلمات المفتاحية بالعربية: - التأويل - التأويلية - السرد العربي القديم - الحكاية- عبد الفتاح كيليطو.

Summary in English:

The Moroccan critic Abd al-Fattah Kilito is considered one of the pillars of contemporary Maghreb criticism in theory and application. During his book (The Story and Interpretation), through which he preferred to return to the Arab narrative heritage (The Story) and re-read it from a modernist perspective according to (Theory of Reception and Interpretation).

This huge book, which took a page (244) pages, is divided into important chapters and topics that deserve to be studied and discussed at length in this intervention. Our aim of the study is to find out what the critic found in his exploration of the ancient Arabic narrative from an interpretive angle, and to know how he reads the heritage and the ways he interprets it.

The importance of this huge critical project (Story and Interpretation 1984 AD) lies in the fact that it combines originality and contemporary, between the old and the modern, by returning us to the traditional Arab memory to discover it and resurrect it in the best dress of the high critical taste of the distinguished critic Abdel Fattah Kilito.

Here, some problems arise about:

What are the creator's motives and goals in returning to the old from a contemporary critical standpoint?

If interpretation is a search for new connotations, what is new from the connotations obtained in the old narrative memory?

How did he manage to adapt the ancient Arabic text to the sweeping current of modernity? And thus did he preserve the meanings of the texts as they were before?

As for the adopted approach, it is the most appropriate description and analysis in this descriptive reading of a critical author from the section (criticism of criticism) or a reading of the reading.

أنواع القراءة وطرق التأويل في كتاب "الحكاية والتأويل":

مصطلح التأويل في النقد المغربي:

ترجم إلى: التأويل، التفسير، علم التأويل، فن التأويل، علم التفسير، Hermeneeutique الهرمنيوتيك، التأويلات وغيرها. بعض النقاد المغربية اصطلاح مصطلحا منقولاً من لغته الإغريقية الأصلية تحت لفظ الهرمنيوطيقا، ومنهم من يفضل استخدام مصطلح التأويلية مشتقة من لفظة التأويل الموجود في الثقافة العربية الإسلامية، ومنهم الناقد مرتاض الذي أثار تسمية التأويلية، وبالعودة إلى القواميس العربية ند سهيل إدريس يختار صفة: تفسيري، تأويلي، متعلق بتفسير الكتب المقدسة والقوانين القديمة، إذ تعددت التسميات ما بين الترجمة والتعريب¹.

يمثل هذا الكتاب مشروع قراءة يتقاطع مع نظريات القراءة والتأويل عند الغرب، متخذاً من ذاكرة النقد والأدب العربي القديم أداة للتطبيق والتجريب

1-القراءة والتلقي من منظور كيليطو:

اهتم إيزر بالقارئ الضمني قال عنه بأنه موجود قبل بناء المعنى الضمني في النص بافتراض وجود قارئ دون الحاجة للتعامل مع القراء الآخرين، كما ركز على فكرة وجود فراغات في النص وضرورة استكمالها لتحقيق الجمالية، يقول روبرت هولب "شغلت بنية الفراغ موضعاً رئيسياً في تفكير إيزر، وعرف هذه البنية بأنها المنطقة المشاع للإلهام"، بمعنى منطقة النقص والغموض في أي عمل إبداعي².

يقول صلاح فضل: "لأن النص المبدئي في ذاته والذي لم تمسسه يد القارئ لا يدخل مجال البحث"، فالمعنى يتشكل أثناء التقاء النص بالقارئ، ولا بد لهذا العمل ألا يكون واضحاً في طريقة عرض لعناصره، لكي لا يفقد القارئ اهتمامه بقراءة النص، والقارئ الجيد هو الذي يبحث عن الجديد واللامألوف.

1- حفيظة زناتي: نظرية التأويل في النقد العربي المعاصر محمد مفتاح أنموذجاً. مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية. الجزائر. مجلد 03. العدد 03. 2020. ص 81-82

2- خراجي سعاد: مبادئ التلقي لدى فولفغانغ إيزر. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامع لجيلالي ليايس. سيدي بلعباس. الجزائر. ص 110

استراتيجية التحليل عند إيزر:

أ- يسمح النص بإنتاج المعنى بقراءة القارئ له وملء الفجوات.

ب- فحص الشروط التي تسمح بقيام التفاعل بين النص والقارئ وتحكمه.

ج- فحص عملية معالجة النص في القراءة، بتحليل جمالياته³.

يقول كيليطو: "سأتصور الآن قارئاً ساذجاً يطلع على حكاية الصيد بغرض التسلية لا غير. هذا القارئ سيتحول رغم أنفه إلى مؤول، ذلك أن في الحكاية عناصر تلزمه أن يطرح على نفسه بعض التساؤلات، عناصر مهمة، غامضة، شبيهة بالغاز، وليس في النص ما يساعد على فكها، مثلاً: "لا يتساءل القارئ لماذا للصيد ثلاثة أولاد، لأنه يعتبر هذه المسألة عرضية، ولكنه عندما يقرأ أن الصيد كان من عادته أن يرمي شبكته كل يوم أربع مرات، فإنه يقول لنفسه: لماذا أربع مرات؟ هذا أمر يبدو بحاجة إلى تفسير"⁴.

2- أهمية المتلقي:

يقول كيليطو: "لم يؤلف بيدبا الفيلسوف كتاب كليله ودكنة من تلقاء نفسه، لم يؤلفه محبة في التأليف، وإنما استجابة لرغبة عبر عنها دبشليم ملك الهند، دبشليم هو الذي أمر بيدبا بتأليف الكتاب، لابد إذن أثناء التحليل من الانتباه إلى مشاركة المتلقي في إنجاز الكتاب، فلولا المتلقي لما كان هناك سرد ولا تأليف"⁵.

"ينبغي أن نضيف أن دبشليم يسمع صوته داخل الكتاب، إذ هو الذي يقترح في بداية كل فصل الموضوع الذي يجب أن يتطرق إليه بيدبا، كل فصل يفتح بأمر يصدر عن دبشليم، وبعد ذلك يأخذ بيدبا في الكلام يقوم بتنفيذ الأمر... كل ما فعله دبشليم أنه طلب من بيدبا تأليف كتاب، فإذا ببيدبا يجعله يقترح موضوع كل باب من أبواب لكتاب"⁶.

"يحرص بيدبا على أن تتكون عند دبشليم رغبة في السرد، وذلك حتى يضمن متابعة يقظة ومتحمسة، ويجعل المتلقي يشارك في العملية السردية، إذا لم يبد المتلقي رغبة في الاستماع فإن السرد يصبح بلا معنى وبلا جدوى، الراوي يحرص إذن على أن يكون ملبياً بدعوة صادرة عن المتلقي، وبدون هذه الدعوة يصير طفيلياً لا يصغي إليه ولا يؤيد له"⁷.

³ - خراجي سعاد: مبادئ التلقي لدى فولفغانغ إيزر. مرجع سابق. ص 110.

⁴ - عبد الفتاح كيليطو: الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي. دار توبقال. المغرب. دط. دت. ص 24.

⁵ - عبد الفتاح كيليطو: الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي. مرجع سابق. ص 05.

⁶ - عبد الفتاح كيليطو: الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي. مرجع سابق. ص 05.

⁷ - المرجع نفسه. ص 05.

3- استراتيجيّة القراءة في كتاب "الحكاية والتأويل":

قال كيليطو: "كلمة جني مرتبطة صوتياً ودلالياً بكلمات أخرى، بالجنون مثلاً (لأن الشخص المجنون يسكنه جني) وبالجنين، ليس هذا الربط بين الجني والجنين من باب اللعب بالألفاظ وإنما من صميم اللغة وإقرأ في لسان العرب: "جن الشيء يجنه: ستره، وبه سمي الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار" ثم يضيف بن منظور: "ومنه سمي الجنين لاستتاره في بطن أمه". تدل كلمة جن أيضاً على البداية، بداية شيء أو زمن: "يقال: كان ذلك في جن صباه أي في أحداثته"⁸.

بين كيليطو مرجعيته الفكرية في التحليل قائلاً: "الصدفة وحدها(؟) جعلتني أتصفح لسان العرب وأنتبه إلى العلاقة بين كلمة جن وكلمة جنين. إذ أن أخذت الخطوط العريضة لقراءتي للحكاية ترتسم وتتضح وتتأكد. وبالفعل بين الجني والجنين تماثل قوي، كلاهما في البداية ملفوف في ظرف في وعاء مائي، وداخل هذا الوعاء كلاهما بين الحياة والموت (كلمة جنين تعني فيما تعنيه المقبور: والجن بالفتح هو القبر لستره الميت"⁹.

إن أبياتاً شعرية عديدة عربية وغير عربية تصف هذه الصدمة فتصور الحياة في بطن الأم على أنها حياة استقرار وطمأنينة وسعادة، وتصور الخروج إلى الدنيا على أنه خروج إلى الشقاء والتعاسة، بهذا المعنى يفسر ابن الرومي بكاء الطفل عند ولادته:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولبد
وإلا فما يبكيه منها وإنما لأرحب مما كان فيه وأرعد¹⁰.

4- استراتيجيّة التأويل في كتاب "الحكاية والتأويل":

قال كيليطو: "جاء أبو سهل يحمل على عاتقه مخلاه جعل فيها كتبه، وعلى ما يبدو فإنه لم يحمل معه شيئاً آخر، فالكتب هي زاده ومتاعه. أية كتب؟ الأرجح أنها ليست من تأليفه وأنه انتسخها من كتب أخرى، لأن المترجم لم يذكر له مصنفات، وحسب ما يبدو فإنه قرأها على شيوخه في المشرق، لأن الكتب كما هو معروف كانت تقرأ على أصحابها أو على رواتها المجازيين، أي الذين لهم الصلاحية في تدريسها وتبليغها"¹¹.

⁸ - المرجع نفسه. ص 29.

⁹ - المرجع نفسه. ص 29-30.

¹⁰ - عبد الفتاح كيليطو: الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي. مرجع سابق. ص 30.

¹¹ - المرجع نفسه. ص 65.

" لماذا طلب الجمل من أبي سهل ان يجعل عليه مخلاته، كل الاحتمالات ممكنة مادام النص لا يشير إلى اللهجة التي استعملها الجمل لمخاطبة صاحبا، لهجة الأمر الذي لا يناقش قوله؟ لهجة الناصح الودود؟ لهجة المشفق الحنون؟، هذه الاحتمالات لا تنفي احتمالا آخر قد لا يكون مناسبا، ومع ذلك لا يجوز إهماله قبل تفحصه"¹².

يعلق في الهامش كيليطو قائلا: "تحيط بالكتب شبهة، ريبة تطالعنا منذ القدم، فالعلم النافع هو العلم المحفوظ في الصدور، أما العلم المودع في الكتب فهو علم ضائع، تؤكد هذه الريبة أبيات من الشعر يذكرها الجاحظ، من بينها هذا البيت"¹³:

استودع العلم قرطاسا فضيعه فبئس مستودع العلم القراطيس

5-تداخل الأجناس الأدبية:

قال كيليطو: "يمكن القيام بدراسة موازية لأسرار البلاغة وكلييلة ودمنة وألف ليلة وليلة، إنني طبعا لا أجهل الفروق بين الأنواع، لا أجهل أن الثريا بعيدة كل البعد عن سهيل، وأنهما لا يلتقيان أبدا بيد أنني عند قراءة أسرار الجرجاني ألمح فيه عناصر قصة أصلية، عناصر مشتة سأحاول جمعها ولمها"¹⁴.

"الحواجز التي نضعها بين الأنواع لها ما يبررها لكن تظل نسبية، فهناك خيوط كثيرة تشد الأنواع فيما بينها وعلى عدة مستويات بحيث لا يجوز لمن يدرس ألف ليلة وليلة مثلا أن يتجاهل تاريخ الطبري ورحلة ابن بطوطة وكتب التراجم"¹⁵.

6-أدب الهامش:

طرأت على الساحة الأدبية مجموعة من الفنون ولكنها تحتل المرتبة الثانية بعد الادب الرسمي، والذي أخذ تسمية أدب الهامش، ها هو كيليطو يعيد الاعتبار له ويرفض تهيمشه في قوله: "أغلب الباحثين لا يهتمون إلا ببعد واحد: الجد، ويهملون البعد الثاني المكون للأدب الكلاسيكي: الهزل، لماذا لا يكتب تاريخ الهزل في الأدب العربي؟ لماذا يتركز الاهتمام على الجد؟ صحيح أن بعض الدارسين يتطرقون إلى ظاهرة الهزل ولكنهم يكتفون باعتبارها أمرا غريبا أو وحشيا لا يستحق وقفة طويلة. أما بالنسبة للقدماء فإن الهزل لم يكن ينفصل عن الجد ولم يكن يقل أهمية عنه، فكانوا يربطون أبا العبر بأبي العنيس الصيمري الذي ألف "في الرفاعة نيفا وثلاثين كتابا" واستمرت جذوة الهزل (أو

¹² - المرجع نفسه. ص65.

¹³ - المرجع نفسه. ص65.

¹⁴ - عبد الفتاح كيليطو: الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي. دار توبقال. المغرب. ص08.

¹⁵ - المرجع نفسه. ص06.

اللعب أو الحمق) تتوهج مع أبي المطهر الأزدي في كتابه حكاية أبي القاسم، ومع بعض الشعراء اليتيمة كابن سكرة وابن الحجاج وغيرهما¹⁶.

7-اللامنهج في كتاب الحكاية والتأويل:

يتساءل كيليطو على المنهج المناسب في دراسة أسرار البلاغة للجرجاني قائلا: " مرة أخرى أطرح على نفسي السؤال التالي: كيف سأتناول كلام الجرجاني؟ هل سأقنع بسرد الصور الواردة فيه؟ هل سأفسرها انطلاقا من افتراض أقوم بتركيبه؟ في هذه الحالة ينبغي أن يكون التحليل متسقا ومتناسقا. لا يكفي أن أتناول صورة منفردة وأقول إنها ترمز إلى هذا الشيء أو ذاك. إن كثرة الصور واتساقها هو الذي يقرض علي أن أنتبه إلى العلاقة التي تجمع بينها وإن أنتقل إلى المعنى الذي من المرجح أنها ترمز¹⁷ إليه. لن ينفعني أن أستشهد بهذا الدارس أو ذاك، بهذا الفيلسوف أو ذاك، إذا لم تستجب النصوص العربية للتحليل الذي أقترحه عليها. لا بد أن اعرض تفسيري على أكبر عدد ممكن من النصوص الكلاسيكية بهدف التحقيق والمراجعة، لا بد أن أقنع نفسي وأقنع الغير بأن هذا التفسير يلائم الثقافة العربية"¹⁸.

8-التحليل النفسي:

يقول كيليطو: "ولعمري ما معنى الصدق والصراحة؟ من يستطيع عند دراسة النصوص الأدبية أن يستعمل هاتين الكلمتين، وقد توطدت فلسفة الوعي المغلوط بعد نيتشه وماركس وفرويد؟ حتى لو أقسم لنا مؤلف بأغلط الأيمان أنه صادق فلا أحد يصدقه. حتى لو اعتقد جازما أنه صريح فإنه لن يصادف إلا الريبة والشك، وسينظر إليه على أنه غالط أو على أنه مغالط، فالصدق ستار يخفي أشياء يحرص القارئ على اكتشافها. إن اللسانيين وأصحاب التحليل النفسي يلحون اليوم على أن المواصللة بين الناس مبنية أساسا على المراوغة والاحتيال والكذب، فكل منا كاذب، تكلم أو خلد إلى الصمت"¹⁹.

"أغلب الظن أن مسألة التعبير عن الذات التي لا يرد ذكرها في النقد القديم أخذت تتبلور مع السيرة الذاتية الحديثة المبنية على الاختلاف، فالذي يكتب اليوم حياته يسعى إلى إثبات تميزه عن باقي الناس وبالتالي إثبات وحدته. أن أسرد حياتي معناه أن أعلن صراحة أو ضمنا بأنني أختلف عن باقي الناس. بل إن هذا الاختلاف هو الذي يسوغ كتابة السيرة الذاتية"²⁰.

¹⁶ - المرجع نفسه. ص30

¹⁸ - عبد الفتاح كيليطو: الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي. مرجع سابق. ص12

¹⁹ - المرجع نفسه. 70.

²⁰ - عبد الفتاح كيليطو: الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي. مرجع سابق. ص71.

"وعلى العكس فإن الحديث عن الذات في الأدب القديم ينبني لا على الاختلاف وإنما على موضع الذات في سلم ترتيبي. أن أتكلم عن نفسي معناه في هذه الحالة أن أعلن هل أنا أسمى، أرفع منزلة، أعلى مقاما من شخص آخر أم لا، أعلى مقاما أو أخط في خاصة من الخاصيات، في فضيلة من الفضائل أو رذيلة من الرذائل"²¹.

نتائج البحث:

- يعد كتاب (الحكاية والتأويل) من أهم المقاربات النقدية الحديثة وما بعد الحداثة، وترجع هذه الأهمية في دراسة السرد العربي القديم.
- شكلت السردية العربية القديمة والمدونة النقدية التراثية مركز اهتمام كيليطو لإعادة إحيائها بقراءات نقدية جديدة ومتنوعة لا تخضع لسلطة منهج محدد.
- الاهتمام بالتراث والعودة له بالدراسة والتحليل اعترافا له بقيمته والإعلاء من شأنه وصلته بالوضع الراهن للطروحات النقدية الجديدة من آليات وإجراءات.
- تتميز تأويلات كيليطو بالحوار، محاورة التراث ومساءلته بالتحليل والمناقشة.

مراجع البحث:

- حفيظة زناتي: نظرية التأويل في النقد العربي المعاصر محمد مفتاح أنموذجا. مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية. الجزائر. مجلد 03. العدد 03. 2020م.
- عبد الفتاح كيليطو: الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي. دار توبقال. المغرب. دط. دت.
- خراجي سعاد: مبادئ التلقي لدى فولفغانغ إيزر. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامع لجيلالي ليايس. سيدي بلعباس. الجزائر. ص 110

²¹ - عبد الفتاح كيليطو: الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي. مرجع سابق. ص 71.